

(١٦١): ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ مع أن القصة واحدة، ومدلول الحرف واحد. قال:

(الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء. وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو، ومنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْكُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ فإن وجود الأكل متعلق بالدخول، والدخول موصل إلى الأكل، فالأكل وجوده معلق بوجوده، بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء<sup>(١)</sup>.



### خصائص أسلوب القرآن الكريم

الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن الكريم جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، ومن تلك الخصائص:

#### الخاصة الأولى:

مسحة القرآن اللفظية الخلافة العجيبة، المتجلية في نظامه الصوتي وجماله اللغوي. والمراد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغماته، واتصالاته وسكناته، اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً.

فمن ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية يشعر ولو كان أعجمياً لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب، وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتقارب أنغامها، فلا يفتأ السمع أن يملها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالباً على نمط يورث سامعه الملل والسأم.

أما سامع لحن القرآن فلا يسأم ولا يمل، لأنه ينتقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة على أوضاع مختلفة، يهز كل وضع منها أوتار القلوب. وهذا الجمال الصوتي هو أول شيء أحسته الأذان العربية أيام نزول القرآن ولم

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٠ وفيه النص كامل مع زيادة.

تكن عهدت مثله، حتى خيل إليهم أنه شعر أو سحر.  
والمراد بجمال القرآن اللغوي ما امتاز به في رصف حروفه، وترتيب كلماته،  
حين تعطى حروف القرآن حقها ومستحقها من المخارج والصفات على ما هو مقرر  
في قواعد علم التجويد.

وحين يخرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤلفة، الجامعة بين اللين  
والشدة، والخشونة والرقّة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، تألف من  
المجموع قالب لفظي مدهش، وقشرة سطحية أخاذة، امتزجت فيها جزالة البداوة في  
غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على  
اختلافها بكل يسر وسهولة.

ولقد كان الجمال اللغوي والنظام الصوتي دليل الإعجاز من ناحية، وكان من  
ناحية أخرى سوراً منيعاً لحفظ القرآن، يسترعي الأسماع، ويشير الانتباه، فيبقى سائداً  
على ألسنة الخلق وفي آذانهم، فلا يجروا أحد على تغييره.

### الخاصة الثانية:

إرضاء العامة والخاصة.

فالعامة والخاصة على حد سواء إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا بجماله،  
وتذوقوا حلواته، وفهموا منه ما استطاعوا أن يفهموه.  
وليس كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز  
والإغراب والإشارة لم يرض العامة، لأنهم لا يفهمونه.  
وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرض  
الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم.

### الخاصة الثالثة:

إرضاء العقل والعاطفة، لأنه يخاطب القلب والعقل معاً.

فمثلاً وهو في معرض الاستدلال العقلي على البعث والإعادة، يسوق استدلاله  
سوقاً يهز القلوب ويمتّع العاطفة. قال سبحانه في سورة فصلت الآية (٣٩): ﴿وَمِنْ  
آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاسَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ  
إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال سبحانه في سورة ق الآيات (٦ - ١١): ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ  
كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّانَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ

كُلُّ نَفْسٍ بِهَيِّجٍ ۖ تَبْصِرَةٌ وَتُنْكَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّسِيَّبٍ ۖ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْمُصِيدِ ۚ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۚ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ .

هذا الأسلوب البارع أفتع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد، قال في الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى أَلَمَوْفٌ﴾ وفي الأخيرة: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً، بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات.

وحين يسوق قصة يوسف عليه السلام مثلاً يأتي بالعظات البالغة ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال في فصل منها: ﴿وَرَزَوْدَتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فتأمل كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث بدواعي العفاف الثلاث مقابلة صورت من القصص الممتع جداً عنيفاً بين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان.

وهكذا تجد القرآن الكريم كله مزيجاً حلواً سائفاً، يخفف على النفوس تجرعها الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية، ويوجه العقول والعواطف معاً جنباً إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسانية.

وهذا ليس ككلام البشر، فإنه إذا وفي بحق العقل بخس العاطفة حقها، وإن وفي بالعاطفة بخس العقل حقها، حتى أصبح معلوماً عرفاً أن الأساليب الثرية مقسمة إلى نوعين: أسلوب علمي وأسلوب أدبي.

فطلاب العلم لا يرضيهم الأسلوب الأدبي، وطلاب الأدب لا يرضيهم الأسلوب العلمي، والإنسان مهما أوتي لم يملك هاتين القوتين متكافئتين، وعلى فرض تكافئهما في شخص فإنهما لا يعملان معاً دفعة واحدة، بل على سبيل البدل والمناوبة ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾ [الأحزاب: ٤].

أما القرآن فإنه هو المفرد بهذه الميزة بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القادر الذي جمع بين الروح والجسد في قرآنه.



## الخاصة الرابعة:

جودة سبك القرآن وأحكام سرده .

فالقرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجملته، وآياته وسوره، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع طول نفسه وتنوع مقاصده، وتلوينه في الموضوع الواحد .

فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة .

وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات، ونكتفي بمثال واحد نضربه مع الاختصار .

هذه سورة الفاتحة، تأمل كيف تترايط وتتناسق في حسن تخلص من معنى إلى معنى، ومن مقصد إلى مقصد .

لقد افتتحت متوجة باسم الله كما يتوج القاضي كل حكم من أحكامه باسم جلاله الملك، لإعلان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور أحكامه، ثم انتقل الكلام فيها سريعاً إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي بالله تعالى وحده، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة، الذي هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال، وبوصف لفظ الجلالة بأنه ﴿الْكَمِيلُ الرَّحِيمُ﴾ .

ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها، ما دام أنه المستعان وحده بالدليل .

ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف في مقام حمده ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ② ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ③ .

ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته في ألوهيته وربوبيته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ④ ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحامد كلها وحده .

ثم انتقل الكلام في براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان، وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده، بقرينة ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ⑤ .

ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعر، أو من حيث تشعر، إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام، تنبيهاً وإغراءً على المقصود، وتحذيراً وتنقيحاً من الوقوع في نقبض هذا المقصود ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٥٨).

وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به، وضال رضي أن يعيش عيشة الانعام، في متاهة الجهالة والحيرة والضلال، لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه.

ثم ننظر في سورة البقرة فإذا هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباطاً المفصل بالمجمل. فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سور القرآن، حيث جاءت بتفاصيل هذه الهداية في بيان كامل، وعرض شامل.

فتراه ينتقل من مقصد إلى مقصد بأسلوب أخذ رائع بديع.

هذا بخلاف البشر الذين كثيراً ما يخطئون في تنظيم أغراضهم إذا قالوا، بل يأتون بها شيئاً مفككاً غير متماسك ولا متجاذب، مما يعاب الشعراء من أجله، بسوء التخلص حين ينتقلون من غرض إلى آخر في القصيدة الواحدة.

ومما يضطر الكتاب والعلماء والمؤلفين إلى تلافي هذا النقص، بما يستخدمون في تنقلاتهم بين أغراضهم من أسماء الإشارة، وأدوات التنبيه، والحديث عن النفس، وكثرة التقسيم والترقيم والعنونة، ولفظ أما بعد، ونحو هذا، وأن، وإلا، وإن قلنا كذا، وتقسيم الكتاب إلى مباحث، وكل مبحث يشتمل على النقاط الآتية...

### الخاصة الخامسة:

براعته في تصريف القول وتروته في أفانين الكلام.

فيورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حليتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، من ذلك:

تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

١ - الإتيان بصريح مادة الأمر، نحو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

٢ - الإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين، نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

٣ - الإخبار بكونه على الناس، نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

٤ - الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه، نحو: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْزِقْنَ بَأْنَفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي: مطلوب منهن أن يربين.

٥ - الإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره، نحو: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: مطلوب من المخاطبين تأمين مَنْ دخل الحرم.

٦ - طلب الفعل بصيغة فعل الأمر، نحو: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

أو بلام الأمر، نحو: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدْوَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

٧ - الإخبار عن الفعل بأنه خير، نحو: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَمَنِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٨ - وصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنه بر، نحو: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَكْفَرٌ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٩ - وصف الفعل بالفرضية، نحو: ﴿فَدَعَلْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي: من بذل المهور والنفقة.

١٠ - ترتيب الوعد والثواب على الفعل، نحو: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

١١ - ترتيب الفعل على شرط قبله، نحو: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ قَوْمًا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

١٢ - إيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام، نحو: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] أي: تذكروا.

١٣ - إيقاع الفعل عقب ترج، نحو: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

١٤ - ترتيب وصف شنيع على ترك الفعل، نحو: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وانظر من ذلك تعابيره عن النهي والإباحة.

ولقد خلع هذا التصرف والافتتان لباساً فضفاضاً من الجدة والروعة على القرآن، فلا يمل قارئه، ولا يسأم سامعه مهما كثرت القراءة والسماع.

وهذا التصرف في القول فن من فنون إعجازه الأسلوبية، ومثله يمنها الله على الناس، ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن، والإقبال عليه قراءة وسماعاً وتدبراً وعملاً، وأنه لا عذر معهما لمن أهمل هذه النعمة، وسئله نفسه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

#### والمجمل(\*):

جمع القرآن بين الإجمال والبيان، مع أنهما غايتان متقابلتان، لا يجتمعان في كلام واحد من الناس، بل كلامهم إما مجمل وإما مبين.

#### الخاصة السادسة:

ما له دلالة غير واضحة، مثل: لفظ (مختار) فإنه متردد بين الفاعل والمفعول، ولفظ (القرء) فإنه متردد بين الحيض والطهر.

#### والمبين:

ما لا خفاء فيه، لا ما وقع إليه السياق. نحو: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان. أما كلمة القرآن فإنك تجدها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التعقيب والبحث لأول وهلة، وإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معاني جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً. وكلما أمعنت فيها النظر زادت من المعارف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد.

---

(\*) المجمل: هو ما خفي المراد منه بنفس اللفظ خفاء لا يدرك إلا ببيان من المجمل، سواء كان ذلك:

لتزاحم المعاني المتساوية الأقدام كالمشترك.

أو لغرابة اللفظ كالهلوع (وهو من يسرع في الجزع عند إصابة المكروه، وفي المنع عند إصابة الخير).

أو لانتقاله من معناه الظاهر إلى ما هو غير معلوم كالصلاة والزكاة والتوبا.

انظر: التلويح على التوضيح للتفتازاني مع حواشيه (ط ١ مصر) ج ١ ص ٤١٤.